

مجلـــــــــــة

آداب الرافدين

علميّـــــة محكّمـــــة

فصليـّـــة

تصـــدر عن كليـــة الآداب

العـــدد: السابع والسبعون

السنـــة: التاسعة والأَربعون

الموصـــــــــل

١٤٤٠هـــ / ٢٠١٩م

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com

الرمز الدولي : ISSN 0378- 2887



آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: السابع والسبعون (نيسان/ أيّار/ حزيران لسنة ٢٠١٩) السنة: التاسعة والأربعون

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار .
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد .
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر .
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة .

((هيئة التحرير))

المحتويـــــــــــات

الفاعلية التواصلية في الخطابة الدينية – الحسن البصري أُنموذجًا

م.د. ميسون محمد عبد الواحد *

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/٣/١١　　　تأريخ القبول: ٢٠١٨/٤/١٠

أولا- مدخل نظري الى مفهوم التواصل والفاعلية التواصلية

ما من شك أنّ موضوع التواصل يجد له أهمية كبيرة في مجمل العلوم الإنسانية، لا سيما اللسانيات؛ لما له من قيمة وظيفية بالغة على صعيد اللغة والكلام. وتتمثل هذه القيمة الوظيفية للتواصل بقدرة المرسل والمرسل إليه على فهم الرسائل المتبادلة بينهما لإدامة التواصل الذي يتحقق في المرسلات الكلامية ، والمكتوبة على حد سواء.

ويرتبط التواصل ارتباطاً وثيقاً بالنظرية التداولية بوصفها علماً مهماً من علوم اللسانيات ، وكذلك علماً في التواصل بين مستعملي اللغة. فالتداولية في أحد مفاهيمها كما يحددها (ل. سفز) هي " الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل"([١]).

وإذا أمعنّا النظر في" الجوانب الفكرية والثقافية التي نشأت فيها البحوث التداولية، نجد أنّها تنطلق جميعاً من الاهتمام بالتواصل، والاستعمال الفعلي للغة، لأنّ ذلك ما يحدد بنيتها التركيبية، إضافة إلى أنّ المتكلم يبني كلامه وفق ظروف التواصل، وطبيعة المتلقي، لا وفق مبادئ النظام أو حتى ما يرتبط به هو، بعدَّه منتجَ الكلام"([٢]).

---

* وزارة التربية العراقية/ مديرية تربية نينوى .

(١) التداولية من أوستين إلى غوفمان ، فيليب بلانشيه، ت. صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط١ ، ٢٠٠٧: ١٩.

(٢) في اللسانيات التداولية– مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، د. خليفة بو جادي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١ ، ٢٠٠٩ : ٦٢.

وطبقا لهذا أصبح التواصل حسب شنّون ووايفر" عملية نقل بين مصدر (الباث) وشخص هو هدف الرسالة(المتقبل)،..يقوم الباث بتشفير المعنى الذي يقصده في نسق أشكال، ويفك المتقبل تشفير هذه الأشكال ليقف على معناها، مما يفترض معه أن يكون للباث والمتقبل نفس الشفرة"(١).

وهذا يعني أنّ كل تواصل" يحمل في ذاته خبراً ويولد بالتالي سلوكا. وكل بلاغ يفترض مضمونا باعتبار أن الخبر يحمل مضمونا معينا– يتم تلقي معناه حسب نمط التبادل وحسب موقع المتلقي"(٢).

والفعل التواصلي يتعلق بالفاعلية، وبقدرة الذات على إدامة التواصل، ذلك أن " الفعل هو ممارسة الفاعلية بالذات"(٣).

أما مفهوم(الفاعلية التواصلية) فقد استعمله الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس في إطار دراساته الإجتماعية المتعلقة بالنشاط التواصلي بين الأفراد، الذي يقوم على عقلانية الفعل، والتفهم، كما أنه يقترح نمطا تبادليا رمزيا يعتمد بالدرجة الأولى على مسألة التواصل(٤).

وبما إن موضوع الخطابة الدينية هو موضوع دعوي بالأساس يهدف إلى إيصال التعاليم الدينية عن طريق الوعظ والإرشاد، فإن عملية توصيل هذه التعاليم التي يقوم بها المرسل(الخطيب) إلى المرسل إليهم(المستمعين) تتم في إطار اجتماعي، وفي زمن محدد.من هنا كانت عملية دراسة (الفاعلية التواصلية) ضرورية للتعرف على طبيعة

---

(١) معجم نحليل الخطاب، باتريك شارودو ودمينيك منغو وآخرون، ت.عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨ :١٠٩، ١١٠.

(٢) المتخيل والتواصل– مفارقات العرب والغرب، محمد نور الدين أفاية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان، ط١، ١٩٩٣ : ١٢٧.

(٣) موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند ، ت. خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط٢ ، ٢٠٠١: ١/ ٢٠.

(٤) الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة– نموذج هابرماس، محمد نور الدين أفاية ، إفريقيا الشرق ، المغرب، ط٢، ١٩٩٨ : ٧٢.

الرسالة(الخطبة) والآليات الخطابية التي أسهمت في تشكيلها، وجعلتها ذات تأثير فعال في نفوس سامعيها.

إن موضوع التواصل يرتبط بشكل فعلي مع الخطاطة التي وضعها ياكبسون ؛ لتوصيف الصورة العامة للعملية التواصلية التي تبدو عليها المرسلات الكلامية، ووظائفها اللغوية، تلك الوظائف التي تتعلق بالمرسل، والمرسل، إليه والرسالة، ومن ضمن هذه الوظائف الوظيفة التواصلية التي تلعب دورا فاعلا في إدامة عملية الإبلاغ بين طرفي الإرسالية اللغوية، والكلامية على حد سواء. وهذا الخطاطة تتكون مما يأتي[١]:

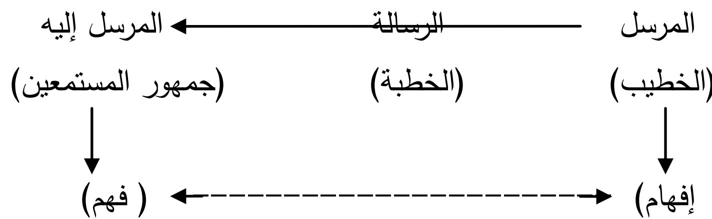
١- المرسل: وهو الذي يقوم بتوجيه الرسالة إلى المرسل إليه.

٢- الرسالة: وتمثل المحتوى الذي يراد إبلاغه، وتحتوي على المرجع، والقناة الناقلة(اللغة) والسنن.

٣- المرسل إليه: وهو الذي يستقبل الرسالة، ويبدي تجاهها ردود أفعاله حسب فهمه لها.

وقد يتحول المرسل إليه إلى مرسل عندما يعيد الرد إلى المرسل الذي يتحول بدوره إلى مرسل إليه في عملية التواصل.

أما في إطار موضوع التواصل في الخطابة، فإن مسألة الإرسال والإفهام متعلقة بالمرسل فقط ويكون دور المرسل إليهم الاستماع والإصغاء والفهم والتأثر والتعلم مما يقوله الخطيب. من هنا تكون الخطبة في إطار عملية التواصل متشكلة على وفق الخطاطة الآتية [٢]:



(١) قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ت. محمد الولي، مبارك حنون ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، ط١، ١٩٨٨ : ٢٧، ٢٨.

(٢) أشكال التواصل في التراث البلاغي العربي- دراسة في ضوء اللسانيات التداولية ، سليم حمدان، بإشراف ، د.محمد بوعمامة، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر،٢٠٠٩: ٨٥.

نلاحظ من خلال هذه الخطاطة التواصلية أن دور المرسل إليه وإن انحسر بالاستماع ، والتلقي المباشر من المرسل إليه، لكنه يتم تفعيله من خلال عملية الفهم ، والاقتناع، والتفاعل ، والتضامن مع المحتوى التوجيهي للموعظة التي تتضمنها الرسالة. على عكس ما نجد في الحوار إذ يكون التفاعل التواصلي فيه قائما على" تبادل الأخذ والعطاء بين ممثلي الخطاب في سياق حواري يحكمه التعاون وينبني على الملاءمة"(١). وطبقا لمفهوم التفاعل بين طرفي الإرسال، فلا بدّ من التنويع، واقتراح البدائل في إطار عرض الأقوال الخطابية؛ حتى نبتعد عن التكرار الذي يقلل من قيمة الفاعلية التواصلية. وهكذا فإنه" لا يمكن إحراز النجاح في التواصل خاصة دون أن نذكر أن كل شيء قوامه الاختيار بين بدائل كثيرة"(٢).

ثانيا– الخطابة الدينية بوصفها موضوعا للتواصل الأدبي

من المعروف أن الخطب الدينية تشتمل على تعاليم الإسلام، ويتوخى الخطيب توصيلها إلى جمهور المستمعين؛ للتمسك بها، والدفاع عنها كونها السبيل الأمثل لصلاحهم، ونجاتهم في الدنيا والآخرة. والخطابة عموما هي عملية توصيل مباشر للأقوال الخطابية إلى المستمعين لإقناعهم، والتأثير فيهم.

وقد عرفت الخطابة بأنها" مصدر خطب يخطب أي صار خطيبا. وهي على هذا صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم، وإقناعهم، فالخطابة مرماها التأثير في نفس السامع، ومخاطبة وجدانه، وإثارة إحساسه للأمر الذي يراد منه؛ ليذعن للحكم، إذعانا ويسلم به تسليماً"(٣).

---

(١) الحوار وخصائص التفاعل التواصلي– دراسات تطبيقية في اللسانيات التداولية ، د. محمد نظيف ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، المغرب ، ط١ ، ٢٠١٠ : ١٥.

(٢) اللغة والتفسير والتواصل، د. مصطفى ناصف ، سلسلة عالم المعرفة ، ع(١٩٣)، الكويت ، ١٩٩٥ : ٢٩٠.

(٣) الخطابة– أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة ، مطبعة العلوم ، القاهرة ، ط١، ١٩٣٤م: ١٢.

ولقد ذكر الباحثون صفات الخطيب الذي يترتب عليه أن يكون متمكنا منها كي يقنع المستمع بخطابه، ويدفعه إلى مزيد من التواصل معه.وقد ذكر الجاحظ هذه الصفات فقال:" أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة..."(١).

فعلى الخطيب أن يكون ملمّا من كل علم بطرف، وأن يراعي ظرف الخطاب ، وسياقه، ولغته، ومقام السامعين، كي يتخير لهم الأقاويل الخطابية المناسبة لمنزلتهم المعرفية، وحالهم الاجتماعي والعلمي. وذلك ليستمر التواصل بينه وبينهم وتؤدي الخطبة غاياتها التي أنشئت من أجلها.كذلك عليه أن يعدّ خطبته، وينظمها من حيث المقدمة، والعرض، والخاتمة؛ حتى تكون منطقية قائمة على الترتيب المنطقي ، والحجج والأدلة والبراهين، والمشاعر، والأفكار؛ لكي يُقنع من أرسلت إليهم، ويتفاعلون، ويتضامنون مع مضمون خطبتة التوجيهي والوعظي الذي يراد إيصاله إليهم بأساليب مؤثرة ومقنعة، أي أن يمتلك أسلوب السهل الممتنع.

ولما كان موضوع التواصل متعلقا بتحقيق التفاعل بين المرسِل(الخطيب)، والمرسَل إليه (جمهور المستمعين) ، من حيث الإفهام والإقناع من جهة الأول، والفهم والانتفاع من جهة الثاني؛ فإن الخطابة الدينية ستصبح موضوعا جديرا بالدرس ؛ لأنها تحوي كل هذه الخصائص والعناصر التواصلية.

ومن هنا قمنا بدراستها من خلال هذه النماذج التي تمّ اختيارها من خطب الحسن البصري التي درسنا فيها الفاعلية التواصلية ، إذ تمثلت بدراسة ثلاثة مستويات أساسية هي: المستوى التضامني ، والمستوى التوجيهي ، والمستوى الإقناعي. وهذه المستويات الثلاثة تكشف بشكل واضح عن الفاعلية التواصلية ، ودورها الفعّال في تعزيز عنصر الإفهام والفهم بين أطراف التواصل الخطابي من خلال سلسلة من الآليات اللغويّة، والبلاغيّة ، والمنطقيّة التي تعمل جميعا بوصفها نسيجا كلاميا متصلا على صياغة

(١) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د. ت : ١ / ٩٢.

مضمون الأقاويل الخطابية والمعنى التواصلي. ولعلنا ندرك أن هذه الآليات الخطابية يصنعها طرفي الخطاب على حد سواء حتى ولو كان الخطاب مقدما من طرف واحد ، ذلك أن" تضمين الآخر في الخطاب هو المعطى الأساس الذي يتطلبه كل حديث ، بل إن المتحدث بمجرد الإعلان عن نفسه كمتكلم يكون قد وضع شخصا آخر أمامه، وحدد لكلامه المقام الخطابي بين أنا وأنت"([1]).

إن الخطابة الدينية – كما ذكرنا آنفا – تعتمد الوعظ والإرشاد أداتين لتوصيل تعاليمها الدينية الداعية الى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإصلاح أحوال الناس عبادة وسلوكاً، ودعوتهم الى الاتباع والاقتداء بسلف الأمة، وتحذيرهم من الدنيا ومغرياتها، وصرفهم إلى العمل لأجل الآخرة.

وفي إطار العصر الأموي فقد كانت الخطبة الدينية متأثرة بالصراعات المذهبية والسياسية التي نشأت فيه، لكن العامل الديني الملتزم بالزهد بوصفه أساسا للورع والخشية من الله تعالى ظل ملازما لكثير من الخطباء لعل الحسن البصري أبرزهم، وأكثرهم زهداً " وهو الحسن بن أبي الحسن البصري، كان أبوه مولى لرجل من الأنصار، وكانت أمه مولاة لأم سلمة؛ زوج النبي صلى الله عليه وسلم، رُبّي في حجرها، وأرضعته بلبّانها...فعادت عليه بركة النبوة فتكلم الحكمة، وارتقى في الصلاح والمعرفة إلى أفضل رتبة، وكان –رحمه الله– أحد المتقين، ومن أولياء الله الصِّدِّيقين" ([2]).

وهو من ناحية الخطابة يقف على" رأس خطباء عصره ووعاظه ومرشديه وموجهيه، وهو يعد– بهذا القياس– صاحب مدرسة متميزة لا تنتهي إلى صنعة معقدة ولا تأنق لفظي تصويري بقدر ما بدا قريبا إلى نفوس جمهوره، وعقول مخاطبيه، يبثهم نصائحه ومواضع اعتباره موثقة من واقع النص القرآني من ناحية؛ ومن تتبع سيرة السلف

(١) الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي– من القرن الثالث الى القرن السابع الهجريين، آمنة بلّعلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب–دمشق ، ٢٠٠١ : ٩٣.

(٢) آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه، الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق، سليمان الحرش ، دار الصديق للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق– سوريا، ط١، ٢٠٠٥ : ٢٣.

الصالح من الصحابة رضي الله عنهم من ناحية أخرى"([1]). ولعل السبب الذي جعل مواعظ الحسن البصري الخطابية مؤثرة أنه" لم يكن ينقل مواعظه من بطون الكتب ، ولا يستمدها من أخبار الرواة، وإنما كانت مواعظه من ذوب قلبه، الذي يرى بعينه الجنة والنار، فيصف عن مشاهدة، ويحكي عن يقين"([2]).

ثالثا– مستويات الفاعليّة التواصليّة في نماذج من خطب الحسن البصري

أ– المستوى التضامني:

والمقصود بهذا المستوى، أن يكون المرسل أو المتكلم في خطابه للمرسل إليه متضامنا ومتعاونا معه. وهذا يعكس علاقته به ، ويكشف عن " درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها ، وأن يعبر عن مدى احترامه لها ورغبته في المحافظة عليها أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينها في محاولة التقرب من المرسل إليه وتقريبه" ([3]). وما من شك أن تعزيز هذا التضامن والتعاون بين طرفي الإرسالية الخطابية سوف يديم التواصل بينهما ويعززه.

ويتضمن المستوى التضامني دراسة عدد من المؤشرات اللغوية يمكن إجمالها على النحو الآتي:

١– أسماء العلم:

ويشمل كلا من الاسم الأول أو اللقب أو الكنية. وهذه الثلاثة سنجدها متحققة في خطب الحسن البصري ، فهو يذكر اسمه (الحسن) في سياق جملة القسم كما في قوله في إحدى خطبه:" **والذي نفس الحسن بيده ، ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلاّ أصبح مهموما حزينا، وليس لمؤمن راحة دون لقاء الله، الناس ما داموا في عافية مستورون فإذا نزل البلاء صاروا الى حقائقهم، فصار المؤمن الى إيمانه والمنافق الى نفاقه، أي قوم: إنّ**

---

(١) النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي– دراسة تحليلية، د. مي يوسف خليف ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٧ : ٢١٨.

(٢) الخطابة بين النظرية والتطبيق، د. محمود محمد محمد عمارة ، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٧: ٣٢٧.

(٣) استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠٠٤ :٢٩٢.

نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم، فسارعوا إلى ربكم، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همّه"(١).

فهو يذكر اسمه من خلال القسم بالله تعالى بصيغة (والذي نفس الحسن بيده) وهي صيغة قسم نبوية ، كان الرسول– صلى الله عليه وسلم– يقسم بها في الأمر الجلل بقوله :(والذي نفس محمد بيده) ، كي ينبه السامع إلى عظمة ما يقوله ، ويؤكّده في نفسه. لهذا فإن الإحالة القسمية من المرسل تكسب قوله قوة وشرعية وتأكيدا للاتباع، مما يولد الاهتمام والارتياح في قلوب السامعين. فضلا عن أن تخصيص اسمه في القسم يجعله أكثر مصداقية وثقة في نفس سامعيه؛ لأن المرسل جعل اسمه في قسمه دلالة على تأكيده بقيمة خطابه وبأنه معني به ومؤمن به قبل سامعه. وذلك يجعل سامعه أكثر تضامنا معه ومع قوله. والشيء نفسه فعله مرسل الخطبة عندما أراد أن يوصل معاني الأمن والاطمئنان التي لا تُتحصّل إلاّ بلقاء الله تعالى، وقبل ذلك فإن الإنسان في دار ابتلاء واختبار لا بدّ للثبات فيها من الإيمان والصبر والعمل. كذلك استعمل المرسل أداة النداء(أي) وهي لنداء القريب لأن المرسل إليهم(المستمعون) قريبون منه مكانا، والمرسل يستفيد من هذا القرب كي يحاول استمالة قلوبهم فيتفاعلوا مع قوله ، ويتضامنوا مع فحوى ما يريد تقريره في نفوسهم.

وفي خطبة أخرى نجد المرسل يوظف الكنية لتحقيق نوع من التقارب والتفاعل مع مستمعيه، فيقول: "**.... يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم بالشر فلا تغبطهم عليه...**"(٢).

نلاحظ أن المرسل استعمل صيغة النداء (يا بن آدم) وهي كنية كل البشر الذين يشتركون في صفة الآدامية. فالجميع (المرسل والمستمعون له) ينتمون لهذه الصفة ، ومن ثم هي دعوة تعميمية يراد منها النصيحة والتضامن من لدن المستمعين وغيرهم إلى الانتباه في معاملاتهم السلوكية المشتملة على المنافسة في الخير، وعدم التحسر على عدم تحصيل

(١) جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، مصر، ط١، ١٩٣٣م: ٢ / ٤٧٠– ٤٧١.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/٤٦٥.

الشر ، والغاية هي دفع الجميع إلى الالتزام بالنصيحة التي هي عبارة عن خيار تضامني تعاوني من لدن المرسل موجه بصيغة النداء والاستقبال بدلالة(يا– إذا) والمعروف أنّ (إذا) أداة شرطية لما يستقبل من الزمان وقد أتى بها لأن المقال يستلزمها فهو لا يستطيع أن يدعوهم الى الإلتزام الآن لأنّهم يسمعون خطبته ولم يقترفوا الفعل بعد في واقعهم، ولا في الماضي لانقضائه ولا سبيل لتداركه وإنّما يدعوهم إلى التطبيق بعد سماعهم لمقاله لأنه من لوازم تحقيق الفائدة المتمثلة بالنصحية التي يبتغيها المرسل.

وتذكر الكنية كذلك في سياق خطابي آخر يعتمد المرسل فيه إلى نقل مقال المكنى به ، فيقول: "...**قال ابن الخطاب: رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوينا**..."([١]). فلم يذكرْ اسم الخليفة بأن يقول: قال عمر بن الخطاب ، وإنما كنّى عنه بابن الخطاب لشهرته بين الناس بهذه الكنية ، فمتى ما ذكرها عرف السامعون من المقصود بها. ذلك أنه في موضع نقل مقال الخليفة الذي جاء به للتدليل والتعضيد لما يريد تقريره في نفس المرسل إليهم بأن معرفة الانسان بمساوئه هي السبيل الأمثل للتخلص منها وتجاوزها، ولهذا عدّ صاحب المقال العلم بهذه المساوئ بمثابة هديّة يستحق الذي يشخصها لصاحبها الدعاء بالرحمة له. ويترتب على المستمعين معرفة الحكمة من هذا المقال كي يتواصلوا معه ويتفاعلوا مع مضمونه الحكمي.

ومثال ذكر اللقب في الخطبة قول المرسل:" **إنّ الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلْقه، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من الضاحك اللاعب، في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون، ويخسر فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه، ومسيء بإساءته، عن ترجيل شعر، أو تجديد ثوب**"([٢]).

نلاحظ أن ظرف الخطاب يتمثل بيوم فطر بعد صيام لشهر رمضان، والخطبة هي خطبة عيد الفطر، ونلحظ عناية الناس بمظهرهم فرحا بالعيد. فكأنّ المرسل أراد أن ينبههم لخطورة الانفلات عن طاعة ربهم والانشغال بدنياهم عنه ، لا سيما بعد انقضاء فريضة

---

(١) م . ن : ٢ / ٤٦٧.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٧١/٢.

الصـيام. ويـأتي دور اللقـب المتمثـل بالألفـاظ (الضـاحك– اللاعـب – المحسـنون – المبطلون) ليؤكد على عدم الاغترار بالعمل في زمن محدد، لأن مجال العمل غير مقيد بزمن محدد، وإلاّ فإن الفائز الحقيقي هو من أدرك وجوب استمرارية العبادة ، والخاسر من اغتر بحسن عمله فحبسه هذا عن المداومة عليه.

وحتى يكسب المرسل تضامن المرسل إليهم فإنه يلجأ الى إفهامهم بإسلوب اقناعي من خلال أنهم لو اطلعوا على حقيقة الأمر لما انشغلوا بمعالجة أحوالهم حسنة كانت أم سيئة، ولما تفرغوا لمظاهرهم يصلحونها على حساب بواطنهم. من هنا يتبين لنا أن توظيف الألقاب بالمعنى التوصيفي لحال المرسل إليه هو جزء من دعوته إلى الاستيقاظ من غفلته والتعاون على إصلاح حاله. واستعمال صيغتي التعجب والقسم يعزز معنى تقرير الفعل الانتباهي والكشفي التحذيري في أذهان السامعين.

٢- الضمائر:

تعد الضمائر من الإشاريات التي لها دور كبير في التواصل والتضامن مع المتلقي ، إذ أن استعمال الضمائر هو" برنامج أسلوبي يخطط له المرسل ، وليس مصادفة لغوية لذلك ينبغي رصد كل التبادلات الطارئة على مسيرة الضمائر ومعرفة قدرتها على التواصل والتعبير، ومدى نجاحها وإخفائها في الوصول إلى الأهداف المرسومة لها"([١]).

وقد وظف المرسل الضمائر في خطبه لتعبّر عن المعنى التضامني، كما في قوله: " **....لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم إلاّ قرة العين وجلاء الصدور، ولقد رأيت أقواما كانوا – من حسناتهم أن ترد عليهم– أشفق منكم– من سيئاتكم أن تعذبوا عليها–، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها**"([٢]).

فنجد المرسل يمستعمل الضمير الإفرادي (أنا) في الفعلين الماضيين:(صحبتُ، رأيتُ) ليؤكد على تضامنه مع سلوك السلف الصالح المشار إليهم بالضمير الغائب الجمعي (هم) المتمثل في هذه المفردات الفعلية والإسمية والحرفية:(صحبتهم ، كانوا ، حسناتهم ، عليهم). وهولاء وإن كانوا غائبين عن زمن التكلم إلاّ أنهم حاضرون في القلوب والأذهان

(١) تبادل الضمائر وطاقتها التعبيرية ، محمد نديم خشفة ، مجلة البيان، الكويت ، ع(٢٩٢) ١٩٩٠: ٦.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٦٧/٢.

معرفيا ونفسيا في حيز الانتماء الاستلزامي، لأنهم يمثلون القدوة والصفوة التي يُقاس عليهم في الأحوا ل والمقال، وفي المقابل نجد المرسل يخاطب أقواما في زمن التكلم والمشار إليهم بضمير الخطاب الجمعي(الكاف- التاء مع واو الجماعة) المتمثل في قوله:(منكم ، سيئاتكم ، عليكم ، تعذبوا) ونرى أنه استعمل هذه الضمائر الخطابية لتوبيخهم على عدم اتباعهم لسلفهم ، الذين كانوا زهادا يحافظون على صحة أعمالهم، ويحرصون على أن تتقبل منهم بخلاف المخاطبين الذين فرطوا بحسناتهم لصالح سيئاتهم وكانوا أحرص على الدنيا، وأكثر جرأة على ما حرم الله تعالى.

وهكذا نجد أن صيغة المقارنة بين الصورتين التي صاغتها ضمائر التكلم والغيبة والمخاطبة قد وضحت لنا طبيعة المعنى المراد توصيله من لدن المرسل الى المرسل إليهم ، وهذا هو المعنى الذي يتمركز في الدعوة إلى الإعتبار بمن سبق ، لأن الصورة المعاصرة لزمن التكلم بعيدة عن أخلاقهم وأحوالهم ، وكأنه يطالبهم بالتضامن معه والتواصل للاقتراب من الصورة الأولى الصافية النقية. وهذا ما تكشفه البنية العميقة لنص الخطبة التي توضح موقف المرسل القائم على الإشفاق والخوف من مآل المرسل إليهم إذا استمروا في غيّهم وعدم انصياعهم لمواعظه ونصائحه.

كذلك يوظف المرسل في نص آخر الضمائر الإفرادية لتحصيل معنى التضامن والتواصل بينه وبين

المرسل إليه ، فيقول: " **لا أذهب إلى من يواري عني غناه ، ويبدي لي فقره ، ويغلق دوني بابه، ويمنعني ما عنده ، وأدع من يفتح لي بابه ، ويبدي لي غناه ، ويدعوني إلى ما عنده**"([1]).

يتبين من النص توظيف نسقين من الضمائر، النسق الأول يتمثل بالألفاظ(أذهب ، عني ، لي ، دوني ، وأدع) والنسق الثاني يتمثل بالألفاظ(يواري ، غناه ، يبدي ، فقره ، يغلق ، بابه ، عنده ، يفتح). ويتشكل من هذين النسقين نسق ثالث تركيبي يجمع بينهما يتمثل بالألفاظ(يمنعني ، يدعوني) وهذه الأنساق أسهمت في صياغة صورة المقارنة بين مفهومي (الخداع / الصدق) في إضهار النعمة اللذين جعلهما المرسل مجالا للتفاضل

(١) م . ن: ٢ / ٤٧٠.

بينهما. إذ نجده يميل إلى الثاني(الصدق) وينصرف عن الأول(الخداع)؛ لأنه ليس في حاجة إليه كما هو الحال مع الثاني. وهذا يعني أن المرسل يتضامن ويتواصل مع الثاني المتمثل بالصدق لأنه يجده قريبا منه ومعبرا عن طبيعته واتجاهه في توخي الصدق والحقيقة.

وهذا المعيار الذي يعتمده المرسل هو معيار سلوكي توجيهي يكشف من خلاله عن المقبولية، والتضامن التي يحظى بها الإنسان الصادق في حقيقة كرمه وغناه الذي لا يخفي نعمة الله تعالى خوفا من سؤال الناس له، فبابه مفتوح، وطعامه متاح لكل طارق أو صديق. على عكس الآخر الذي يكون مرفوضا ومستبعداً، لبخله ولأنه يعتمد التغطية على حقيقته من خلال تظاهره بالفقر؛ كي لا يطرق بابه أحد، فبابه مغلق، وطعامه محجوب.

كذلك نلحظ في هذا النص الخطابي تنوعاً جمالياً في استعمال المفردات اللغوية الفعلية والاسمية، فهناك الثنائيات الضدية (يواري / يبدي ، يغلق / يفتح ، يمنعني / يدعوني، غناه / فقره) وهذا الاستعمال التركيبي للتضاد في صياغة المعنى الخطابي جعل المتلقي أمام صورتين متضادتين لكي يتبيّن حقيقة معنى الصدق والخداع بوصفهما ظاهرتين واقعيتين معاشتين على الإنسان أن يتبصّرهما ويفهم كيفيات التعامل معهما في إطار السلوك الأخلاقي المعتدل الذي يترتب عليه الالتزام به.

كذلك هناك التكرار في الأفعال المضارعة (يبدي : تكررت مرتان ، أدع / يدعوني) وهذا التكرار أسهم على صعيد التواصل في تعزيز المعنى التضادي في صورة(الفقر/ الغنى) وفي توكيد المعنى التماثلي في صورة(الدعوة إلى من يفتح بابه للمتكلم ، ومن يدعوه إلى طعامه).

وهذان النسقان التضادي، والتماثلي يشكلان نوعا من التمثيل الصوري لكي يدرك المتلقي حقيقة المعنى السلوكي الواقعي للمتكلم بشكل أعمق وأوضح.هذا المعنى الذي يمثل الصورة الواقعية الإيجابية المتوازنة لحقيقة التعامل مع الآخرين، وما على المتلقي سوى التواصل مع هذا المعنى والاستجابة لها لأنه خير مثال تتوفر فيه معاني العدل والإحسان.

٣- أسماء الإشارة:

إنّ لأسماء الإشارة دورا فعالا في تثبيت اللفظ في ذهن المتلقي، وإعطائه زخما أكبر وأوضح في التأثير والتحديد النوعي لطبيعة الخطاب. ذلك لأن اسم الإشارة " بطبيعة دلالته يحدد المراد منه تحديدا ظاهرا ويميزه تمييزا كاشفا، وهذا التحديد قد يكون مقصدا مهما للمتكلم، لأنه حين يكون معنيا بالحكم على المسند إليه... يمنح الخبر مزيدا من القوة والتقرير "([١]).

وفي الخطب دور فعال لأسماء الإشارة ، كما نعاين ذلك في قول المرسل:"... **الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل، أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم، وقد أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون؟**"([٢]).

نلاحظ بجلاء أن حلقة التواصل هي بين اسمي الإشارة(هنا–هناك) فالأولى(هنا) دالة مكانية للدنيا الفانية المحددة بوقت معلوم، لذا على ساكنها أن يستثمر فرصة بقائه فيها بالسعي والعبادة.في حين أن الثانية(هناك) دالة مكانية للآخرة التي هي دار بقاء لا فناء. فعلى الإنسان أن يجدّ كي يفوز بنعيمها. ونجد كذلك أن المرسل قصد من صياغة هاتين الصورتين المتضادتين إلى تحديد معنى التفاضل بينهما، حيث تكون الآخرة الغاية القصوى لسعي الانسان، وتكون الدنيا الوسيلة المتاحة لبذل الجهد الصادق للوصول إلى الغاية. ونتبين كذلك وجود الحوافز التنبيهية التي يقدمها المرسل إلى المرسل إليهم، المتمثلة بأنهم آخر الأمم وان من هم أفضل منهم قد سبقوهم ، فلا مجال للتسويف وتضييع فرص النجاة. والمرسل يبتغي بتذكيره هذا التضامن معهم عبر حرصه على توعيتهم، وإرشادهم بأن لا ينتظروا أن يباغتهم الموت وهم لاهون غير آبهين لنهايتهم.

كما نلحظ أن المرسل للخطبة يوظف اسم الإشارة بمعنى الإحالة النصية من خلال التكرار ، فيقول:

---

(١) خصائص التراكيب– دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى، دار التضامن، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠: ١٥٣.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٦٥/٢.

" لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح ذلك من نفسه، وإنّه إذا فعل ذلك لم يصلح عيبا إلاّ وجد في نفسه عيبا آخر ينبغي له أن يصلحه، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره"(١).

نلحظ ابتداء توظيف الخاصية التكرارية من خلال اسم الإشارة(ذلك) الذي تكرر ثلاث مرات، وفي كل مرة يتكرر فيها فإنه يحيل الى جملة أو مجموعة جمل نصية، فكأنه موظف لاختزال تلك الجمل فيه لتحقيق نوع من الكثافة النصية التي تخدم موضوع التواصل بين المرسل والمرسل إليهم. فنجد مثلا أن (ذلك) الأولى تحيل الى معنى المبادرة بإصلاح نفسك قبل غيرك ، حتى يكتسب نصحه لغيره قوة وتأثيرا ومصداقية. في حين نجد أن (ذلك) الثانية أحالت إلى معنى إصلاح النفس عمليا ، وإن هذا الإصلاح يجب أن يستمر لأن العيوب تترى ولا تتوقف بمجرد الإصلاح لمرة أو مرات عدة. أما (ذلك) الثالثة فتحيل الى معنى استمرارية الإصلاح بصيغته المنجزة التي إذا تحققت فإنها تشغل المرء بإصلاح عيبه قبل أن ينشغل بعيوب الآخرين.

وعموما فإن الصيغة التكرارية كانت ضرورية لأنها تتساوق مع فعل الإصلاح المتكرر .فضلا عن وظيفتها الاختزالية. كما نجد أن المرسل استفاد من تكرارها لتحقيق نوع من التواصل مع مستمعيه عبر إشعارهم بأهمية معالجة النفس المتعلقة بالمرء قبل نفس غيره. ولقد كان لاسم الإشارة الفاعلية القصوى في تأكيد معنى التضامن بين المرسل والمرسل إليهم من خلال استثمار الخاصية التكرارية ، التي دلت على وعي الذات المتكلمة بأهمية توصيل المعنى بصورة إشارية تراعي مقام المرسل إليه، وتحثه على التبصرة بقيمة المقال الخطابي، فضلا عن دعوته للتفاعل معه كي تتحقق مقصدية المرسل التوجيهية والتعليمية المرتبطة أولا وأخيرا بالوصول إلى معرفة حقيقة الإيمان، وما تتطلبه من شروط تخص الناحية الإصلاحية للنفس الإنسانية.

ب- المستوى التوجيهي:

وهذا المستوى يتعلق بالعلامات التوجيهية والتنبيهية التي يوجهها المرسل إلى المرسل إليه من أجل إدامة عرى التواصل بينهما. إذ إن المرسل إليه قد ينتابه نوع من عدم الكفاية في

(١) م . ن: ٤٦٩/٢.

التواصل بحيث لا يقدّر ما يفعله المرسل من إنجازات كلامية تصب في صالحه لكنه قد يتغافل عنها أو لا يدركها بالطريقة الصحيحة، هذه الإنجازات التي يوليها المرسل عنايته" لتبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطابي،... كما يود باستعمال هذه الاستراتيجية أن يفرض قيداً على المرسل إليه بشكل أو بآخر وإن كان القيد بسيطا أو أن يمارس فضولا خطابيا عليه يوجهه لمصلحته بنفعه من جهة وإبعاده عن الضرر من جهة أخرى"([1]).

ويتحقق المستوى التوجيهي في الخطاب عبر سلسلة من الاستراتيجيات اللغوية والبلاغية منها:

١ – الأمر والنهي:

تعد أفعال الأمر والنهي أفعالا توجيهية إصلاحية يتم تحصيلها من خلال صيغ ذات طبيعة إلزامية طلبية إنجازية ، تلخصه مقولة (إفعل ولا تفعل). وهذه الأفعال تعمل على شد انتباه المرسل إليه لمسار الخطاب ، وتلزمه بالعمل بمقتضى فحواه ، كما أنها تعين المرسل على تحقيق هدفه المنشود دون تمهل أو تسويف من قبل المرسل إليه الذي يترتب عليه امتثال الأمر أو النهي الموجه إليه لإدامة التواصل، والتفاعل مع ما هو مطلوب منه من خلال الالتزام. والغاية من كل ذلك هو إصلاحه وإبعاد الضرر عنه. وقد وظف المرسل صيغتي الأمر والنهي في إطار بنية التضاد فقال:" **بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا**"([2]).

فالنص الخطابي الذي يتوفر على بنية التضاد (بعْ / لا تبعْ) هو عبارة عن معادلة منطقية موجهة لمن يبتغي الفوز بالدنيا والآخرة. وطرفا هذه المعادلة هما: فعل الأمر المتمثل بقوله(بعْ) المتعلق بمعنى الربح في حال التضحية بالدنيا لأجل الفوز بالآخرة. وصيغة الأمر موجهة الى مرسل إليه يدرك المعنى وغايته، ولكنه قد يتناساه أو يغفل عنه فلا بد من تذكيره وتوجيهه كي يفهم حقيقة مصيره. وطرف المعادلة الثاني يتمثل في خطاب النهي المتمثل في قوله:(ولا تبع) المتعلق بمعنى الخسارة في حالة التضحية بالآخرة من أجل التمتع بنعيم الدنيا الفاني. وصيغة النهي هي الأخرى أسهمت

---

(١) استراجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية: ٣٢٢.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٦٥/٢.

في توجيه المرسل إليه عبر زجره وتحذيره من فعله هذا الذي يفضي به إلى الهلاك في نهاية المطاف.

وما من شك بأن بنية التضاد التي صاغها خطابا الأمر والنهي قد أسهمت بصورتها المعرفية والإنجازية في تكثيف المعنى ، اعتماداً على الذخيرة المعرفية التي يمتلكها المرسل ، ويحاول المرسل إليه الالتزام بمقولاتها انطلاقا من معنى الفهم المشترك بينه وبين المرسل. ذلك أن الكلمات "الدالة على الأمر والنهي...تتطلب قيام المتلقي بممارسة هذه الأفعال، فالفعل اللغوي يصحبه فعل اجتماعي أو ثقافي"(١). ومن خلال قيام المرسل بإنجاز هذه الأفعال على مستوى القول والفعل فإنّ صيغتها الإلزامية ستجد صداها التوجيهي عند المرسل إليه الذي سيبادر حتما إلى احترام المعنى من خلال الإنجاز الفعلي المباشر الذي لا يحتمل التسويف أو التراخي عن الأداء.

وهناك نماذج كثيرة لاستعمال صيغة الأمر بالمعنى التوجيهي، كما في هذا النص:" **وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل**"(٢).

فصيغة الأمر الدالة على الجمع(وجهوا) تؤكد على المنحى التوجيهي للاتجاه الأمثل لتصريف الفائض عن الحاجة من لوازم الحياة عبر التصدق به طاعة لأمر الله تعالى في منحه للمحتاجين. واتباعا لأمر السلف الذين فعلوا ما أمرهم الله به في هذا الشأن، إذ إنهم كانوا زاهدين بما في أيديهم يأخذون منه كفايتهم، ويتصدقون بما فضل منه طلبا للأجر وإحساسا منهم بلزوم إعانة إخوانهم من المحتاجين. وكذلك يتم توظيف صيغة النهي لتحقيق المعنى التوجيهي ذاته ، ولإدامة الفعل التواصلي بين المرسل والمرسل إليهم. كما في النص الآتي:" **يا بن آدم: لا تعمل شيئا من الحق رياءً ، ولا تتركه حياءً** "(٣). فصيغتا النهي(لا تعمل، لا تترك) تقومان على صياغة بنية تعادلية بين طرفين محورهما الأساس هو العمل، وهذا العمل موجه إلى فعل الطاعات ، وهو مشروط بالنية الخالصة

(١) لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتاح أحمد يوسف، منشورات الإختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠: ٤٤.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٦٩/٢.

(٣) م . ن: ٤٦٩/٢.

لله تعالى حتى يقبله. ويتوجب على المرسل إليهم أن يدركوا حقيقة صحة الأعمال حتى لا يقعوا في المحذور الذي قد يبطل أعمالهم كالرياء مثلا. كذلك عليهم أن لا يتخلوا عنها لأجل الورع والتواضع لأن ذلك قد يؤدي إلى تفويت فرص الأجر ومساعدة الآخرين.

٢- النداء:

يعد أسلوب النداء من الأساليب الخطابية التي توكد على جعل المرسل إليه حاضرا في سياق التواصل من خلال توجيهه وتنبيهه ، وكذلك يبتغي المرسل من خلاله تذكير المرسل إليه بأنه هو المعني بالخطاب، وأن المعنى الخطابي موجه إليه. وقد يكون النداء أداة ربط بين أقوال سابقة ولاحقة ، وهذا الترابط قد يكشف عن " العلاقة بين الكلمات التواصلية، مشيرا إلى بيانات مباشرة تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة والمتزامنة معها"([١]).

وفيما يتعلق بخطب الحسن البصري، فإنّها في مجملها تستعمل أداة النداء (يا) التي تستعمل لنداء البعيد، وهي دائما مقترنة بعبارة (ابن آدم) فتكون الصيغة الندائية التي تشكل ظاهرة في الخطب- موضوع الدراسة - هي صيغة (يا بن آدم). كما هو واضح في النصوص الخطابية الآتية ([٢]):

- " **يا بن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا.....**"
- " **يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه....**"
- " **يا بن آدم طإِ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرك...**"
- " **يا بن آدم أذكر قوله:((وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا...**"
- "**يا بن آدم الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني...**"

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٠: ٢٩٤.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٥ – ٤٦٨.

وهكذا نجد تكرار لازمة النداء(يا بن آدم) في كل الخطب دون سواها من النداءات المعروفة في الخطب الدينية. وهذا الاستعمال التكراري- بطبيعة الحال- يحمل في طياته دلالاتين:

الأولى: هي التأكيد على وحدة الانتماء البشرية للمخاطبين، إذ هم جميعا يعودون إلى آدم –عليه السلام- ومن ثم لا فرق بينهم مهما اختلفت أشكالهم ومراتبهم الدينية والاجتماعية.وهذا المعنى يولد الارتياح في نفوس المخاطبين، ويحفزهم على التواصل والتفاعل مع توجيهات المرسل.

والدلالة الثانية: هي أن عبارة(يا بن آدم) وإن كانت مفردة من حيث الصيغة ، وتوحي كأنها موجهة إلى شخص محدد ، لكنها في حقيقة الأمر هي تشمل الجميع ممن ينتسبون إلى آدم–عليه السلام- فهي تصدق عليهم جميعا، وهي لفظ خاص أُريد به معنى العموم. وهذا التعميم يحفز الجميع على التواصل مع فحوى الخطبة، لأنهم جميعا معنيون بالخطاب وتوجيهاته.

كذلك نجد أن المرسل يجعل من النداء مفتاحا يطرق به سمع المتلقي ويجدد انتباهه لما أراد أن يوصله إليه في بداية كلّ فقرة، لكي يبقى المتلقي دائم الاتصال بالمرسل، فلا يغفل أو يتشتت ذهنه عن فهم الخطاب الموجه إليه. ومن "هذا المنطلق جاء عموم الخطاب من قبل الواعظ لجمهوره، فهو حين يقول يا بن آدم فكأنما عمّ النداء للبشرية عبر كلّ زمان"([١]).

٣- الاستفهام والتعجب:

يعد الاستفهام من الأساليب التواصلية التي تديم فعل الحوار بين المتخاطبين. كذلك فإن الاستفهام فيه حث على إنجاز الفعل، وطلب مزيد من التوضيح للوصول إلى الهدف المنشود من الخطاب.

وفيه كذلك معنى طلبي للعلم بالشيء ومحاولة فهمه عبر الاستيضاح المبني على السؤال. وقد يخرج الاستفهام الى معانٍ كثيرة منها: التوبيخ والتحقير والتهكم والاستنكار وغيرها. وهو أسلوب يندرج ضمن الصيغ الحوارية الموحية، ذلك أن هذه "

(١) النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي- دراسة تحليلية: ٢٠٨.

الصيغ الأسلوبية تخرج عن مقتضى دلالتها الظاهرة إلى أغراض وإفادات تواصلية بحسب ما يقتضيه المقام"(١).

أما أسلوب التعجب ، فهو الآخر يعبر عن تفاعل المرسل مع حال المرسل إليه من خلال إندهاشه، واستغرابه مما هو عليه من غفلة أو تهاون في أمر عظيم مما يدفع المخاطب إلى الإصغاء والانتباه لهذا الاستغراب، ويبحث في الأسباب التي دفعته إليه.

وفي نصوص الخطب نلاحظ أن استعمال الاستفهام والتعجب اقتصر على صيغ مخصوصة ذات بعدين دلالي وتواصلي كما هو واضح في قول المرسل:" **وكان إذا قرأ:((ألهاكم التكاثر)) قال: " عمّ ألهاكم؟ عن دار الخلود، وجنة لا تبيد ، هذا والله فضح القوم، وهتك الستر، وأبدى العوار، تنفق مثل دينك في شهواتك سرفا، وتمنع في حق الله درهما!**"(٢).

في هذا النص يوظف المرسل ابتداءً صيغة الاستفهام(عمّ ألهاكم) انطلاقا من صيغة التقرير الواردة في قوله تعالى:(ألهاكم التكاثر) فكأنه يقول للمرسل إليهم، لماذا ألهاكم الاهتمام بالتكاثر بالأولاد والمال والجاه والجند وغيره من متاع الحياة الدنيا عن طاعة الله وعبادته.أليس الأجدر بكم التفكر في هذا الحال المزري الذي صرتم إليه؟ فالاستفهام هنا من قبل المرسل وإن كان موجهاً إلى المخاطبين به الذين يتوجب عليهم الإجابة، لكن المرسل أجاب عنهم بالنيابة، لأن صيغة الاستفهام التقريرية لا يراد منها الإجابة من المرسل إليهم، لأن فيها معنى الاستنكار لفعلهم هذا.

ومن جهة أخرى نلاحظ استعمال التعجب في معرض ذم من يضحي بدينه من أجل إشباع شهواته. ذلك الذي يسرف في شهوته ، ويمتنع عن أداء حقّ الله تعالى وهو قليل قياسا على ما تمّ إنفاقه على الشهوات. فهذا لا شك يثير العجب والإستغراب.

---

(١) التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي صحراوي ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠٠٥ : ١١٧.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٨.

ونخلص من هذا إلى أن الاستفهام المغلق الذي لا يراد منه جوابا هو نوع من الاستفهام الإنكاري الذي يأتي بمعنى النفي، وكذلك التعجب يحصر المتلقي في دائرته ، ويجعله متفاعلا ومتضامنا مع ما يلقى إليه

دائرته ، ويجعله متفاعلا ومتضامنا مع ما يلقى إليه من توجيهات فيها نجاته وصلاحه. كما في قوله:"**علام تعرِّجون؟ أُتيتم وربّ الكعبة! قد أُسرع بخياركم: وأنتم كل يوم ترذلون، فماذا تنتظرون؟**"(1).

فهذا النص يبدأ بالاستفهام الاستنكاري(علام تعرِّجون؟) بمعنى: لا تعرّجون وسيروا سيرا مستقيما، فهذه

التعرجات في سيركم تطيل الطريق ، وأنتم في حاجة الى استثمار الوقت قبل وقوع النهاية وانتم على هذه الحال؟ وهذا تنبيه واضح وتوجيه قيّم يترتب على المخاطبين الاستماع له والأخذ به. والاعتبار بمن رحلوا من أخيارهم من السلف الصالح. ثم يأتي التعجب(أُتيتم وربّ الكعبة!) أي هلكتم إن لم تسرعوا وتبادروا بالأعمال الصالحة. فالتعجب هو من حالهم هذا القائم على التسويف فيما الوقت يمر بسرعة، ولم يعد هناك مجالا للتسويف والغفلة. ثم يجيء الاستفهام(فماذا تنتظرون؟) في نهاية المطاف لكي يحفز المرسل إليهم على الإسراع في العمل طلبا للنجاة قبل نفاد الوقت. وكأنه يقول لهم:لا مجال للانتظار والتأخر.

٤– الإغراء والتحذير:

يعد كل من الإغراء والتحذير من الأدوات الفاعلة في التواصل بين المرسل والمرسل إليهم. ذلك أن الإغراء هو تحبيب الشيء للمتلقي ، وترغيبه به. أما التحذير فهو عكسه نهي المتلقي عن الفعل، وتخويفه منه. وكلا المعنيين(التقريب والإبعاد) يندرجان ضمن معنى التعاون والتوجيه اللذين يبغي المرسل من خلالهما إصلاح حال المرسل إليه ، وإبعاد الضرر عنه. كذلك نستنتج من استعمال هذين الأسلوبين تفاعل المرسل إليه مع دلالتهما، ومن ثم يتحقق التواصل اللساني الذي هو" غالبا ما يقدم استنتاجات تتجاوز

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٦.

المحتوى الدلالي للتلفظات"(١). ويتجلى الإغراء في صورته التكرارية المعهودة في قول المرسل:" ...**من رأى محمد صلى الله عليه وسلم فقد رأه غادياً رائحاً، لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، رُفع له علم فشمر إليه فالوحاء الوحاء، والنجاء النجاء**"(٢).

واضح من النص أن المرسل يستعمل أسلوب الإغراء بصيغته التكرارية في قوله(فالوحاء الوحاء، والنجاء النجاء) لكي يحفز المرسل إليه الى الإسراع والعجلة في النجاة بنفسه من خلال الإقتداء برسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم ينشغل بإمور الدنيا وزخرفها وإنما انشغل بطاعة الله ، وعبادته ، وإعلاء كلمة التوحيد في كل مكان. فالإغراء هنا هو دافع توددي يلجأ إليه المرسل لحث المخاطبين إلى الفعل الإنجازي قبل فوات الآوان، وهو يطلب تعاونهم لتحقيق نجاتهم.

ومن الاستعمالات التكرارية لأسلوب الإغراء قوله:" **رحم الله رجلا وعظ أخاه وأهله فقال:((يا أهلي: صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، مساكينكم مساكينكم، لعل الله يرحمكم...))**"(٣).

وهنا نجد تكرارا متعددا شمل الصلاة، والزكاة، والمساكين، وهي من الأمور العظيمة التي تتطلب الالتزام بها والمحافظة عليها، وعدم التفريط بحقها المفروض على الإنسان لأجل صلاحه ونجاته وقبول عمله.كذلك نلاحظ أن صيغة عرض هذه التكاليف الشرعية جاء من خلال الموعظة من قبل رجل لأخيه وأهله، وهو أسلوب محبب للنفس يقرب لهم الصورة ، ويشعرهم بعظم المسوؤلية ، ويدعوها للالتزام بفحوى الموعظة لا سيما أنها جاءت ممن هو قريب لهم ويريد نجاتهم.

ويستعمل المرسل في خطبة له عن الموت، والدنيا، والسبل المتفرقة، أسلوب التحذير في قوله: " ...**ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها، فلا والله ما وجد ذو لبٍ فيها فرحا، فإياكم وهذه السبل المتفرقة، التي جماعها الضلالة، وميعادها النار**.."(٤).

---

(١) التداوليات– علم إستعمال اللغة، د. حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، إربد الأردن ، ط١، ٢٠١١ : ٤٧٦.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٦.

(٣) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٨-٤٦٩.

(٤) م . ن: ٢/ ٤٦٩.

يحذر المرسل في خطبته هذه من مغبة سلوك طرائق متعددة تؤدي إلى التفرقة، والضلالة ، ومن ثم تكون عاقبتها النار.وقد تم التصريح بالتحذير في قوله:(وإياكم) أي أحذركم من هذه السبل التي تفرق الجماعة، وتضعف وحدتها، وتحرفها عن الصراط المستقيم. وكان قبلها قد حذر ضمنا من الموت، وما يتركه من أثر في نفوس الأحياء حين يتذكرون فعله فيهم. فهو لم يترك لأصحاب العقول مجالا كي يفرحوا بدنياهم، بل دفعهم إلى توخي الحذر والاستعداد ليوم الرحيل، وفي ذلك حثٌ للمرسل إليهم على العمل والحذر من الإنحراف عن طريق الحق، ودعوة لهم للمشاركة في إصلاح أحوالهم ، وتعزيز رصيدهم من الأعمال الصالحة قبل أن يدهمهم الموت ولات ساعة مندم.كذلك نجد المرسل يدعم وعظه بالقسم(فلا والله) كي يؤكد صدق مقاله الوعظي، ويضيف مزيداً من المقبولية له في نفس سامعيه ممن يترتب عليهم التضامن مع هذا التوجيه والإلتزام به.

ج- المستوى الإقناعي:

ويتعلق الإقناع بالحجج والبراهين والأقيسة التي يوردها المرسل لتعزيز رأيه ، وتسويغ موقفه أو توكيد كلامه، لإقناع المرسل إليه بصدق كلامه ، وإثارة عاطفته تجاهه ، بحيث يكون مستعداً لتبنيه والدفاع عنه إذا لزم الأمر.والشيء المهم في الإقناع أن يؤدي إلى إثارة العاطفة" ومخاطبة الوجدان ، وإن الخطيب قد يستغني عن الدلائل العقلية ، ولا يمكنه في أية حال الاستغناء عن المثيرات العاطفية"([1]).

كذلك فإن الهدف من الخطاب الإقناعي هو" إقناع المرسل إليه بما يراه أي إحداث تغير من الموقف الفكري والعاطفي لديه"([2]). أي تحريك مكامن الإدراك والفهم لدى المرسل إليه لكي يقتنع ويتفاعل، وذلك بتعزيز المقال الخطابي بالحجة والدليل.

والحسن البصري بوصفه من شيوخ " الخطباء الوعاظ في عصره، هو أيضا من أوائل من خاضوا بنثرهم موضوع المحاججة المذهبية ، وهو يؤرخ لبداية الخوض في القضايا المذهبية"([3]).

---

(١) الخطابة- أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب: ٦٨.

(٢) استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية: ٤٤٤.

(٣) في بلاغة الخطاب الإقناعي- مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، ط٢، ٢٠٠٢ : ٤٩.

ولما وجدنا هذا الترابط المنطقي في الفاعلية الإقناعية التي تتجلى في الخطابات التي تعتمد الحجاج بوصفه أداة للتفاعل مع المخاطبين لتعزيز مكانة الخطاب لديهم، فضلا عن الأدلة العقلية والنقلية، التي يتم عرضها من خلال الأدوات البلاغية واللغوية التي تعمل على صياغة نص الخطابة بصورة تعتمد بشكل أساس على تفهم المرسل إليه وإدراكه للمقاصد والدلالات التي يحاول المرسل توصيلها إليه مستندا إلى قوة بيانه وحجة دليله. فإنه لا بدّ من دراسة الآليات الإقناعية في الخطب– موضوع الدراسة– التي تتمثل بما يأتي:

١- الآليات البلاغية:

وهي تتمثل بجملة من الفاعليات البلاغية التي تتمركز بشكل أساس في البيان والمجاز والمعاني. وهي مستعملة في الخطب بشكل واضح ومكثف. كما في قول المرسل:" **ذهبت الدنيا بحاليها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم. فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة! أما أنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم**"([١]).

نلاحظ أن النص حوى على جملة من الآليات البلاغية التي أسهمت بشكل فاعل في إقناع المتلقي ، وحثه على التفاعل معه ، والتصديق بمقاله. ومن هذه الآليات: التشبيه، حيث شبه الأعمال الصالحة بالقلائد التي تطوق أعناق بني آدم. وقد حذفت أداة التشبيه، وكذلك وجه الشبه، فكان التشبيه بليغا في تأثيره في المتلقي، حيث شبه العمل الصالح الذي يبقى ملازما للإنسان في حياته وبعد مماته بالقلائد المحيطة بعنق الإنسان لا تفارقه بل تزيده بهاء وجمالا، ولا تنفك عنه.

ثم نجد المرسل يستعمل عبارة (ذهبت الدنيا) وهذا استعمال مجازي مرسل، فالأصل هو ذهاب زخرف الدنيا بما اشتمل عليه من إيجابيات وسلبيات. وهو ذكر الدنيا لأنها تشتمل على كل ذلك ، فاستغنى عن التفصيل الى التكثيف والإيجاز، وهذا بدوره يفتح آفاق المرسل إليه لكي يتصور حجم ما تدل عليه الدنيا من أمور تشكل صورتها وكيانها، ثم يتصور أن كل هذا سيزول ويفنى ولا تبقى سوى الأعمال الصالحة.كذلك لا

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٦.

يخفى ما للفظتي(الموعظة والقلوب) الواردتين في سياق النداء والتعجب من تأثير وتأكيد وإقناع للمتلقي بقيمة إدامة الصلة بين الوعظ والقلب كي يتحقق مفعوله الأقصى في التأثير" لإزالة الشك وتأكيد الصلة الحميمة بينهما"(١).

ثم يأتي دور المؤكدات(أما أنه والله) ليزيد كلام المرسل إقناعا أقوى لتوكيد معنى الجمل التقريرية(لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم) في نفس المرسل إليه ويتذكر أنه لا مناص من العمل ما دام الأمر قد وصل إلى نهايته، ويتوجب عليه بما أنه من هذه الأمة أن يكون وارثا لرسالتها، ومبلغا لتعاليمها.ولهذا جاءت الكناية(أنتم تسوقون الأمم) كناية عن المهمة الملقاة على عاتق المخاطبين في تعليم الناس، وإرشادهم إلى طريق الإسلام، وقيادتهم لتحصيل هذه الغاية الشريفة.

ثم في الختام يأتي دور الاستعارة (والساعة تسوقكم) بوصفها دالة على أنسنة الساعة وكأنها إنسان يسوق الناس إلى خاتمتهم، ووجه المشابهة قائم في كون الإثنين (الذين يسوقون الناس والساعة) يقومان بوظيفة سوق الناس سواء في سوقهم في الدنيا إلى طريق الهداية حتى مماتهم أم سوقهم من الدنيا إلى خاتمتهم النهائية المتمثلة بالآخرة حيث الثواب والعقاب.

والغاية من هذا كله هو إقناع المرسل إليه بضرورة القيام بواجباته الموكلة إليه بوصفه داعياً الى الله، وتنبيهه إلى أن الجميع معرضون للمساءلة في نهاية المطاف حتى يسرع ويبذل أقصى ما عنده من جهد في إيصال رسالة الإسلام إلى الناس جميعا.

٢- الأدوات والأفعال اللغوية:

يتأسس النص الخطابي شأن النصوص الأخرى من سلسلة من الأدوات والأفعال التي تلعب دوراً فاعلا في إنتاج الدلالة النصية. تلك الدلالة التي يستقبلها المرسل إليه من خلال فهمه للخطاب وطريقة تشكيله. ويمثل الجانبان الإقناعي والحجاجي مجالا رحبا لهذه الدلالات الناتجة عن الكيفية التي يتشكل منها الخطاب الأدبي. ومن خلال مطالعتنا للنصوص الخطابية وجدنا توظيفا دالا لهذه الأدوات والأفعال

(١) اللسانيات وتحليل النصوص، د. رابح بو حوش ، جدارا للكتاب العالمي، عمان- الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط١، ٢٠٠٧ : ١٢٢.

اللغوية، كما في قوله المرسل:"...**رحم الله رجلا نظر فتفكر وتفكر فاعتبر ، وأبصر فصبر ، فقد أبصر أقوام ولم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ولم يدركوا ما طلبوا ولم يرجعوا إلى ما فارقوا**"(١).

فقد استعمل المرسل الأفعال اللغوية بوصفها أداة حجاجية ، إذ يصبح كل فعل منها مقدمة ونتيجة لما بعده. فالنظر يقود إلى التفكر والاعتبار، وكل ذلك يؤدي إلى حيازة ثمرة الصبر التي حرم منها بعض الناس؛ لاستعجالهم وعدم تفكرهم بما أبصروا. ثم نلحظ دور الأداة الجازمة(لم) في نفي الصبر ، والإدراك، والرجوع إلى الحق عن هولاء الذين ضربوا مثلا في عدم إفادتهم مما أبصروه فلم ينالوا بغيتهم ، ولم يؤوبوا الى ما تركوه. وهذا الاستعمال النوعي للأفعال والأداة الجازمة يعزز فعل الإقناع لدى المرسل ، ويدفعه إلى مزيد من التفكر والاعتبار حتى لا يصيبه ما أصاب غيره من عدم الاكتراث بالتبصر والتدبر.

كذلك نلحظ في النص الخطابي التكرار للأفعال(فتفكر/ تفكر، فصبر/ يصبروا ، أبصر: تكررت مرتان) فضلا عن وجود الجناس في قوله(أبصر/ فصبر) وهذا التوظيف الجمالي للتكرار والجناس على مستوى الكلمة أسهم بشكل فاعل في تفعيل الجانب الإيقاعي للنص المتشكل من خلال التوازي الجملي الذي عزز قدرة النص على توصيل المعنى بشكل مؤثر وفعّال جعل المتلقي يتفاعل ويستجيب لفحوى الرسالة الخطابية ويقتنع بها شكلاً ومضموناً.

وفي نص خطابي آخر نجد أن المرسل يوظف سلسلة من المؤثرات الإقناعية اللغوية لتعزيز المعنى المراد إيصاله إلى المرسل إليه، فيقول: " **وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره، فلا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر، فإنك إذا رأيته سرك مكانه، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيته ساءك مكانه**"(٢).

فالخطاب يبدأ بالأدة المؤكدة(وإنك) المتكررة ثلاث مرات، المتصلة بكاف الخطاب، ذلك المخاطب الذي يراد منه حين يعاين عمله في إطار أفعاله الإنجازية ، سلبية كانت أم

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٦.

(٢) م . ن: ٢ / ٤٦٩.

إيجابية ، فعليه الانتباه والحذر من استصغار عمله، والاستهانة به. ثم تأتي الأداة الناهية الجازمة(لا) المتكررة مرتان في سياق النهي للدلالة على الاستحقار للعمل خيرا كان أم شراً، والنهي دال على الترك الإلزامي للفعل لما فيه من الضرر وضياع المصلحة. ذلك أن الفعل الإيجابي مهما كان صغيرا لكنه مفرح للنفس عندما يراد منه إعانة الآخرين، وكذلك الحال مع الفعل السلبي، فمهما صغر لكنه يترك أثراً سيئاً لأنه يجلب الضرر والأذى. كذلك نجد توظيف الأداة الشرطية (إذا) الدالة على الاستقبال في إطار البرهنة على صحة المقدمات المتعلقة بالخير والشر.هناك أيضا منظومة الأفعال المشكلة للخطاب وهي أفعال مضارعة(تحقرن) المتكررة مرتان، وهو يمثل المحور الأساس للمقدمتين الخطابيتين. وهناك الأفعال الماضية(صغر: المتكرر مرتان، رأيته: متكرر مرتان، سرك، ساءك) والتكرار أفاد تعزيز المعنى الإقناعي إنطلاقا من المقدمات والبراهين التي لا بد لها من التكرار الفعلي كي يتعزز المعنى الخطابي لدى المرسل إليه.ولا يخفى دور بنية التضاد في إطار البرهنة(سرك – ساءك) التي أفادت كثيرا في صياغة هذه المقارنة المتعارضة في دلاتها،مما يشعر المتلقي بمقبولية الخطاب وصدق تصوراته وأقواله.

٣- حجة المرجع والدليل الاقتباسي:

كثيرا ما يتطلب في النصوص ذات الطابع الخطابي التي يواجه بها المرسل الجمهور تعزيز الأقوال الخطابية بالأدلة والبراهين لتطمين المرسل إليهم من صدقية وقيمة هذه الأقوال من جهة، ولإلزامهم بها من خلال دعمها بالنصوص الشرعية التي تعزز مكانتها في نفوس السامعين من جهة أخرى.

وتتنوع الأدلة التي يعتمدها المرسل في تدعيم أقواله الخطابية ما بين آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وهو يستلهم معناها الشرعي والتقويمي في مجمل ما يقدمه من خطب وعظية، ثم يستدل بها ليؤكد على ضرورة الأخذ بها، واعتمادها منهجا للنجاة، ولإصلاح الحال في الحياة الدنيا. كما أن الخطباء يستشهدون بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف " لتكون لهم الحجة البالغة ؛ إذ كانوا يخاطبون قوما، كل مجدهم جاء من الدين

الإسلامي الحنيف، ولأن القرآن الكريم في منزلة من البلاغة، دونها أي كلام.والحديث الشريف في المنزلة الكاملة لبلاغة البشر"([١]).

وقد أورد المرسل سلسلة من الحجج والأدلة الاقتباسية في أقواله الخطابية، بعضها مصرح به نصاً والآخر غير مصرح به نصاً وإنما يفهم منه من خلال كلمة أو جملة اقتباسية واردة فية أنه يحيل الى الدليل. يقول المرسل:" ...**إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة والسلام على علم منه، اختاره لنفسه، وبعثه برسالته، وأنزل عليه كتابه، وكان صفوته من خلقه، ورسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعا ينظر إليه أهل الأرض، وآتاه قوتاً وبُلغْة، ثم قال:((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)). فرغب أقوام عن عيشه، وسخطوا ما رضى له ربه، فأبعدهم الله وأسحقهم**"([٢]).

فنجده يورد الأدلة والحجج الواحدة تلو الأخرى، لتأكيد نبوة رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم– فهو النبي المبعوث رحمة للعالمين الذي اختاره الله على علم منه، وكلفه بنشر الرسالة، وأنزل عليه القرآن الكريم. وجعل من مكة المكرمة والمدينة المنورة موضعين كريمين لنشر رسالته. ثم يأتي المرسل بالدليل القاطع المصرح به نصاً المتمثل بالآية القرآنية؛ لإقناع المرسل إليه بضرورة الاقتداء بالنبي محمد – صلى الله عليه وسلم– واتباعه بكل ما أمر به وما نهى عنه. ويمكن تمثيل الأدلة الإقناعية حسب مراتبها وقوتها الإحتجاجية في النص الخطابي بما يأتي:

- ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)).
- بعثه الله برسالته، وأنزل عليه كتابه.
- اختاره لنفسه.
- كان صفوته من خلقه.
- وضعه في موضع ينظر إليه أهل الأرض.

إن هذه التراتبية في الحجج والأدلة إنما تقدم إنطلاقا من قوة الدليل القطعي، وما يفرضه على المرسل إليه من التزام ديني ، ومن تأثير وجداني يجعله مقتنعا بجدوى العمل

---

(١) الخطابة– أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب: ٣٩–٤٠.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٦.

بمقتضاه طوعا لا كرها، لأن هذه الأدلة مقررة أساسا ، ومحفوظة في ذخيرة المرسل إليه المعرفية، ولكنه يحتاج إلى من يعززها في نفسه بشكل معرفي وتعليمي، ويذكره بها في لحظات غفلته وانهماكه في مغريات الدنيا التي قد تصرفه جزئيا عن الالتزام بتعاليم الله سبحانه تعالى كما حصل مع هولاء القوم الذين جرّهم جهلهم إلى مخالفة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فاستحقوا غضب الله عليهم.

في نص خطابي آخر نجد أن المرسل يوظف نصا من الحديث النبوي الشريف لتوكيد المعنى المراد توصيله، فيقول:"....**فليس الصفو ما عاد كدراً ، ولا الكدر ما عاد صفواً ، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم، ظهر الجفاء وقلت العلماء، وعفت السنة**"([1]).

فنجد أن المرسل إبتداءً يقرر حقيقة أن الصفو يبقى صفواً فإذا صار كدراً فهو ليس صفواً في ذاته. وكذلك الحال مع الشيء الكدر يبقى كدراً فإذا صار صفواً فهو ليس كدراً. وحتى يقرر المرسل هذا المعنى في حقيقة الأشياء الصافية والكدرة احتاج إلى الدليل لكي يقنع المتلقي ، ويقوّي المعنى في نفسه ويثبته. فكان الدليل متمثلا في الحديث النبوي الشريف، وتحديداً في الحديث الذي يرويه الترمذي: " أن أبا الحَوْراء السّعدي قال: قلتُ للحسن بن علي ما حفظتَ من رسول الله– صلى الله عليه وسلم؟ قال: حفظتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم: " دعْ ما يَريبُك ، إلى ما لا يَريبُك، فإنّ الصدقَ طمأنينة وإنّ الكذبَ ريبة"([2]). والحديث النبوي الشريف يؤكد على أن يكون المسلم واضحاً ومتحرياً لليقين والصدق في عباداته ومعاملاته، فإذا وقع الشك في أمر منها فعليه تركه إلى ما هو واضح لا شك فيه، لأن في الصدق واليقين راحة للنفس وسكينة، وفي الكذب والشك قلق واضطراب ومشقة، والشبهات هي التي تكون محلاً للشك والقلق وعدم الاطمئنان فتركها أولى. ولو حاولنا الربط بين ما ذكره المرسل في تقريره سنجد أن مضمون التقرير متساوق تماما مع معنى الحديث، فكلاهما يؤكدان على معنى حديث آخر يفسر لنا حقيقة الشبهات التي يقع فيها الشك من حيث الحرام والحلال. وهذا الحديث يرويه البخاري:" عن

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦٧.

(٢) سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى ابن الضحاك الترمذي ، تح. رائد بن صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر والتوزيع – الرياض ، ط٢ ، ٢٠١٥م: ٤٩٣.

عامر قال: سمعتُ النعمان بن بشير يقول:" سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " الحلالُ بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما مشبَّهاتٌ لا يعلمها كثيرٌ من الناس. فمن اتقى المُشبَّهاتِ استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقعَ في الشُّبهاتِ كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإنّ لكلّ ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه. ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب" (١).

والخلاصة إن هذا الاستدلال هو بمثابة حجة ودليل يحققان الإقناع التام مما يدفع المرسل إليه إلى الالتزام والتعاون والفهم من أجل العمل بمقتضى الحديث كي ينجو بنفسه من الانزلاق في ما حرم الله سبحانه وتعالى.لأن الولوج في الحرام قد يكون من باب الشك، لهذا عليه أن يسد هذا الباب. لا سيما وكما قرر المرسل في خطابه– في زمن ظهر فيه الجفاء، وقلّ العلماء، وقلّ الالتزام بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

نتائج البحث :

١– في الجانب النظري تم التركيز على تبيان دور الفاعلية التواصلية في الكشف عن مكامن المستويات الحيوية في عملية الإبلاغ بين عناصر التواصل الثلاثة (المرسل = الخطيب) و(المرسل إليه = الذي يسمع الخطبة أو الذي يقرأ الخطبة) و (الرسالة = الخطبة).

٢– وفي الجانب التطبيقي حاولنا تحليل نماذج من خطب الحسن البصري لنؤكد أن هذه الخطب كانت تتوفر فيها الإمكانية التواصلية من خلال سلسلة من المقاطع النصية التي تؤكد على أن التواصل وأدواته اللغوية والدلالية والتداولية كانت جميعا تعمل على تفعيل مجال الإبلاغ بين المرسل والمرسل إليه.

---

(١) صحيح البخاري ، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق – بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢: ٢٣– ٢٤.

٣- قدرة المرسل الإبلاغية ، وتمكنه من أداته اللغوية في التواصل والتضامن مع المرسل إليه ، وتوجيهه من خلال الوعظ والإرشاد إلى الالتزام بالأصول والآداب الدينية التى تصلح حاله في الدنيا والآخرة.

٤- كذلك أفرزت النصوص المختارة القدرة الاستدلالية للمرسل في توصيل المعنى الخطابي إلى المرسل إليه ، إذ يستعين بسلسلة من الأدلة النقلية والعقلية لإفهام وإقناع المرسل إليه بالتفاعل مع خطابه والعمل بمقتضى ما ذكر فيه من تنبيهات وتوجيهات ومواعظ .

the communicative effectiveness in the religious rhetoric – Al-Hasan Al-Basri as a model

Lec.Dr.Maysoon Muhammed Abdul Wahid

Abstract

This research entitled “ the communicative effectiveness in the religious rhetoric – Al-Hasan Al-Basri as a model “ represents a theoretical and applicative study for the religious rhetoric, especially for Al-Hasan Al-Basri.. The communicative effectiveness has been studied starting from employing the linguistic, eloquent and logical techniques to find the ability of the rhetoric art to achieve the reaction between the sender and the receptor.To achieve the meaning of the communicative effectiveness in rhetoric,three communicative levels have been studied: the solidarity,directing and convincing.These three levels revealed the effectiveness of the eloquent meaning between the communication parts and the ability of the rhetoric message to affect and convince.